

احتلال بحر الغزال

مضى على احتلال بحر الغزال عشرة اعوام ولا يزال آثار تلك الرحلة خالدة في النفس
 فرأيت ان اكتب شيئاً عنها بما لا يزال عالماً في ذاكرتي او دونته في مفكراتي او كتبت به
 في رسائلي الى اهلي واصدقائي . عشرة اعوام مضت لكن ذكرى الرفقاء الذين تركناهم في
 تلك البلاد لم تنقض . رقاء الشدة والخطر والتعب والمرض والجوع والعطش . بعضهم خير
 من لقيت من الفتيان . كرام بواهل لا يهابون الموت . منهم من يقم الاسد في عريته او
 يقتل الفيل على بعد عشر خطوات او يتف وحده امام العدو فيرده على اعقابيه حتى يجمع
 الجنود شملهم ويمودوا لانقاذو فيجدونه مضرجاً بدماثو وحوله جثث الاعداء . قبورهم
 منتشرة في تلك البلاد وواحد منهم لا يعرف له قبر فان الاعداء لم يتركوا له اثراً وآخر
 حمله منيته الى بلادهم فمات بين اهله . وسأني ذكر كل واحد منهم لكنني سابدأ اولاً
 بذكر شيء عن تاريخ هذه البلاد قبل احتلالها الاخير فاقول

بحر الغزال نهر كبير يمتد النيل من غربيه الى الجنوب من فشودة و به سميت البلاد التي
 يخرج منها وهي الآن مديرية من مديريات السودان يحد من الشمال دارفور وكردوفان وجنوباً
 ولاية الكنتو الحرة وشرقاً النيل الابيض ويعرف هناك ببحر الجبل نسبة الى الجبل الرحاف
 وغرباً الكنتو الفرنسي

وهي بلاد واسعة الارحاء واقعة بين الدرجة الخامسة والدرجة العاشرة من العرض
 الشمالي ولم يكن يعرف شيء عنها عند الاوروبيين قبل اواسط القرن الماضي ولا يعلم اول من
 دخلها من العرب ولم ازل لها ذكراً في ما كتبت عليه من المؤلفات العربية وربما كانت طوائف
 لهم ودمدم وتيم او غير التي ذكرها الادريسي وشمس الدين الدمشقي من سكان هذه البلاد
 او ما يجاورها فقد جاء عن هؤلاء الافواهم انهم من اكلة لحوم البشر وانهم يتعاملون بالخرز
 والنحاس كما يتعامل سكان بحر الغزال في ايامنا وذكر الادريسي نهرأ يجري من منابع النيل
 غرباً ولعله النهر المعروف بنهر اولي وهو من السواعد الكبرى التي تمتد نهر الكنتو

واول من دخل بحر الغزال من الاوربيين رجل من ويلس يدعى جون بترك وكان ذلك
 سنة ١٨٥٦ ثم كثير الرواد بعده واشهرهم المدموازي تيه (Tinné) وهي سيدة هولندية
 كانت على جانب عظيم من الثروة سافرت الى بحر الغزال سنة ١٨٦٣ ومعها والدتها وحظاياها
 وجماعة من الخباء منهم البارون فون هورغلن ومن مشاهير العلماء الذين دخلوا تلك البلاد العالم

الباقى المشهور الدكتور شوينغورث قضى فيها ثلاث سنوات وكسب في وصفها كتاباً سماه « قلب افريقية » هو احسن ما كتب عن تلك البلاد حتى الآن . ووصل في رحلته الى بلاد الهامم آكلة لحوم البشر واكتشف نهر الولي المذكور آنفاً . ومن الذين دخلوا بحر النزال وكتبوا عنه جسي باشا الابطالي ويونكر الالماني وغيرهما

تجارة الرقيق

واشتهر بحر النزال في تجارة الرقيق والناج فكان تجار مصر والسودان يتبرون اليه العصابات المسلحة في كل عصابة مئة رجل او اكثر فاذا وصلت العصابة الى مكان رأيت فيه مفتحة حمرت لنفسها خندقاً واقامت حوله زريبة من الشوك واخذت تجمع العاج والريش من الاهالي مقايضة بالخرز وروثوس الحراب واساور النحاس لأن لهذه الاشياء قيمة كبيرة في تلك البلاد كما سيجي . ثم اذا رأى رجال الزريبة فرصة جمعوا على القرى والناس فيها غافلون قتلوا الرجال وسبوا النساء والاطفال وساقوم عبيداً وابعروهم في اسواق الرقيق في السودان ومصر وبلاد العرب . هذه هي الحال التي كانت عليها تلك البلاد في اواسط القرن الماضي . قال لي شيخ كبير لثبته هناك « أعلم ان طوبوشك الاحمر هذا مصبوغ بدم اولادي » وقال جسي باشا في وصف رحلته انه لم يكن فيه حاجة الى الادلاء فان عظام العبيد الذين كانوا يموتون على الطريق كانت خير دليل له

الزبير باشا

وبقيت البلاد على هذا المنوال الى ان تغلب الزبير باشا عليها وامتلكها فعينه الخديوي اسماعيل باشا سنة ١٨٧٣ حاكماً عليها . ثم افتتح الزبير دارفور واستدعا الخديوي الى مصر فخرج ابنه سليمان على الحكومة وبعد مواقف بينه وبينها اتفق مع جسي باشا على التسليم هو وعدد كبير من رجاله ثم قتلهم جسي باشا بعد تسليمهم لاسباب لا محل لتكرها هنا . ولا يزال الزبير يطالب بدم ابنه وابناء اعمامه وامواله الى هذا اليوم . وكان مع سليمان بن الزبير عبد اسمه رايح ابي التسليم معه وسار غرباً ومعه بعض الرجال الذين كانوا على رأيه واقام في بورنو وصار سلطاناً عليها وامره مشهور مع الفرنسيين حاربهم زمناً ثم قتل منذ بضع سنوات ولما قتل سليمان الزبير عين لبتن بك من رجال البحرية الانكليزية مديراً عاماً لبحر النزال وساقى بك من اهالي دنقلة مديراً ثم كانت ثورة المهدي فانرساتى بك الى الخرطوم جلب المؤونة والدخيرة فوجد الدراويش يحيطون بالمدينة فدخنها وبقي فيها يحارب حرب الابطال الى ان قتل في موقعة القطينة

الامير كرم الله الكركاوي

اما لجن بك فتي في بحر النزال يرد غارات الدراويش تحت قيادة اميرهم كرم الله الكركاوي ثم سلم لهم بعد قتال ثمانية عشر شهيراً واحلهم هو ومن معه من الاقباط على يد الامير كرم الله نساء كرم الله الامير عبدالله ثم ارسله الى المهدي فوجه المهدي في السجن ثم اطلقه وتوفي بعد ذلك في ام درمان وله فيها ايتان لا تزالان هناك حتى الآن

وبقي كرم الله في بحر النزال الى سنة ١٨٨٦ ثم ارتحل عنه برجاله وعادت الاحكام فيه الى سلاطين وشيوخه . وقتل كرم الله في القاهر سنة ١٩٠٣ قتله علي دينار سلطان دارفور وقد كان معه في بحر النزال اخ اسمه محمد سافر معنا الى بحر النزال سنة ١٩٠٠ . قال لي بمجد الكركناوي مرة وقد رأى جماعة من اهالي البلاد هناك « انظر الى هؤلاء الكلاب قد كانوا كلهم عبيدي منذ سنوات » فكانت يقتل بقول الشاعر

كان مآ الملوكة في سالف الدهر وكنتم لنا قديماً عبيداً

لمدينة مرشان

وقبت البلاد تحت سلطة شيوخها وسلاطينها الى ان كانت سنة ١٨٩٤ فانفتحت حكومة فرنسا مع ولاية انكنغو على احتلالها واحلت بعض المواقع . وفي اوائل سنة ١٨٩٦ سار الكولونل مرشان من الكنغو الفرنسي ومعه ستة ضباط فرنسيين وطبيب ومترجم واثنان عشر صف ضابط فرنسي ومئة وخمسون جندياً من جنود السنغال السود ومدفيعتان وثلاثة مراكب من الالومينيوم فاخترق البلاد من اوطا الى آخرها وبني فيها الحصون والمعازل وجعل قاعدته قلعة ديزاه (Fort Desaix) ونسى الآن واوهي عاصمة بحر النزال . وبعد ان عانى ما لا يوصف من المشاق والاضطار وحل الى فشودة في العاشر من شهر يوليه سنة ١٨٩٨ اي قبل احتيلاء الحكومة على ام درمان باقل من شهرين فارسل الخليفة سرية لقتاله معها مدفيعتان فردها مرشان على اعتاقها بعد ان قتل عدداً كبيراً من رجالها . ثم كانت حادثة فشودة بين انكلترا وفرنسا على ما هو مشهور وانتهت بانخلاء الفرنسيين لبحر النزال وفشودة

عزم الحكومة على احتلال بحر النزال واستعداد البحرية للسر

وعادت التوضى الى بحر النزال الى ان عزمته الحكومة السودانية على احتلاله فانفذت لذلك قوة عسكرية بقيادة المرجوم مباركس باشا وكان ذلك في اواخر سنة ١٩٠٠ فبلغني امر هذه التجربة وانا في شندي وسمعت ان البكاشي هميس من القسم الطبي قد عين رئيساً لاطباؤها فكسبت اليه ولم يكن يفنا معرفة وسأته ان يطلب من رئيس اطباء الجيش ارسالي معه وبعد

بضعة ايام اتاني تلفراف من حكيماشي الجيش يامرني فيو بالسفر الى ام درمان ترافقة القوة المسافرة الى بحر الفزال فتعرفت هناك بالضباط المسافرين مع هذه القوة وبقينا في ام درمان اياماً نمتد فيها للسفر ونشترى ما نحتاج اليه من الخرز والاسلاك والاساور والانسيجة واسلحة الصيد . واخذ بعضنا مؤونة سنة من السكر والشاي والبن والحبوب والفواكه اليابسة والاضمة المحفوظة في العلب وما اشبهه . وفي التاسع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٠ هجرنا من ام درمان على ثلاث يواخر ومصرنا ونحن لا ندرى من منا يرجع سالماً

وكانت سرينتا مؤلفة من ١٦ ضابطاً ومترجم وكتاب و ٨٤ من الجنود المنظمة و ٢٦٦ من الجنود غير المنظمة و ٢١٦ من نساء المساكين واولادهم وسحبنا من الادلاء محمد الكركماوي المذكور آنفاً ورجلان آخران معه وضومئة رجل وامرأة من مهاجري البلاد العائدين الى اوطانهم وكانوا قبلاً عبيداً في الخرطوم وما يجاورها . واخذنا معنا حصاناً واحداً للفرجة وسبعة بنغال و ٨٧ حمراً لجل المؤونة . وكان معنا من البضائع لتقايسة الاهالي ما تبلغ قيمته الف جنيه تقريباً اكثرها النسيجة واساور نحاس وخرز . واخذنا ٥٠٠ كيس من النسيج الكشم الذي لا ينفذه الماء . و ٧٥ صندوقاً صغيراً كلها مبطنة بالنسيج لا ينفذها الماء ولا تفرصها الارضة وهي كثيرة جداً في تلك البلاد . وكان معنا عدد كبير من الكلال لانتقاء البعوض والشحومات للوقاية من المطر والرطوبة وادوات الزراعة والنجارة والخلافة وتصليح السروج والسلاح وما اشبهه . اما الادوات الطبية فلم يبق معنا شي منها . وهاك اسماء الضباط والموظفين الملكيين حسب رتبهم حينئذ

ضباط البحرية

اميرالاي مباركس بك قائد القوة وقد رقي بعد ذلك الى رتبة ميرلوا ثم استقال من الجيش المصري وتوفي في بلاد الانكليز

الكياشي بلوى من الطوبجية وقد رقي بعد ذلك الى رتبة قائمقام فير الاي وعين مديراً لبحر الفزال وتوفي هناك سنة ١٩٠٥

البكياشي بري من السراي رقي بعد ذلك الى رتبة قائمقام واستقال من الجيش المصري ثم استقال من الجيش الانكليزي ولم يبق غيره حياً من الضباط الانكليز الذين رافقوا هذه البحرية وهو الآن الماحور بري سكرتير نادي السباق في هليوبوليس

اليكياشي هيس من القسم الطبي جرح في واقعة الهانم وتوفي في مارس سنة ١٩٠٤ في بحر الفزال

المتتتت فل من ايجربة الملكية كان قائد البواخر في هذه التجريدة وخلق بنا في التوفيقية جنوبي فشودة ، وقد استقال من الجيرية بعد انتهاء التجريدة فالخلق بحكومة السودان وفتح رتبة قائمقام وتوفي في بحر النزال سنة ١٩٠٥

البكباشي فرج افندي ابو زيد من البيادة وهو الآن من الضباط المتقاعدين اليوز باشي عباس افندي عثمان من البيادة وهو الآن من الضباط المتقاعدين اليوز باشي مرسان افندي نصرت من البيادة وقد بقي في بحر النزال زمنا ثم ارتحل عنها الملازم الاول محمد افندي صبري من البيادة وقد توفي في بحر النزال سنة ١٩٠٢ كاتب هذه السطور وكان رتبة ملازم اول ثم رقي الى رتبة يوزباشي واستقال من الخدمة الملازم الاول نجيب افندي شديد من القسم الطبي وقد رقي بعد ذلك الى رتبة يوزباشي واستقال من الخدمة

الملازم الثاني احمد افندي كامل من السواري وقد رقي بعد ذلك الى رتبة ملازم اول ثم الى رتبة يوزباشي وهو الآن في مصر القاهرة

الملازم الثاني احمد افندي درويش من البيادة وقد رقي الى رتبة ملازم اول ثم الى رتبة يوزباشي وهو الآن في مصلحة الخفر

الملازم الثاني ريجان افندي عبد الله من البيادة وقد رقي الى رتبة ملازم اول ثم الى رتبة يوزباشي

الملازم الثاني محمد افندي عي من البيادة وقد رقي الى رتبة ملازم اول ثم الى رتبة يوزباشي الملازم الثاني محمد افندي امين من البيادة وقد رقي الى رتبة ملازم اول ثم الى رتبة

يوزباشي وهو الآن مأمور نفودي في كردوفان يوسف افندي صدي مترجم التجريدة

محمد بك عبد الغفار باشكاتب التجريدة

واربعة من هؤلاء الضباط سودانيون من سكان تلك البلاد في الاصل نكبتهم ربوا في مصر اولدوا فيها وهم فرج افندي ابو زيد ومرسان افندي نصرت وريجان افندي

عبد الله ومحمد افندي امين وواحد تركي المولد والاصل وهو عباس افندي عثمان : واربعة مصريون وهم محمد افندي صبري واحمد افندي كامل واحمد افندي درويش ومحمد افندي

علي ، واثان سرديان وهما الدكتور نجيب شديد وكاتب هذه السطور والباقيون انكليزيون وكان معنا ايضا جويشان انكليزيان وخلق بنا هناك ضباط آخرون او جاؤوا بعدنا وهم





(١)



(٢)



(٣)

(١) رجال الشُّك بلباس الحرب (٢) جماعة منهم بلباسهم المعتادة

(٣) جماعة من لائبه ينهن عجزوز تدخن التبغ

نشرت هذه الصور باذن صاحبها جورج اندي مريج

القول اعلمني علي افندي وهي توفي هناك والبكاشي سكوت باربر قتله الاهالي والقائمقام ارستيج بك دامتة الاقيال والقائمقام وود بك وغيرهم

القيام من ام درمان ويوسف النيل الايض

وكان قيامنا من ام درمان في التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٠٠ ومعا ثلاث مدفعات نيلية وهي الظافر والحفير والتوفيقية ومع كل مدفعية صندلان وقيامتان او ثلاث مربوطة فيها (الصادل والقيامات من مراكب النيل) . فسارت البواخر بنا حية النيل الايض جنوباً ام درمان عن ميبتنا والحروطوم عن شمالنا . ولم تكن البلاد التي سرنا فيها اولاً مجهولة عند الكثيرين متالانا مرورنا فيها قبل ذلك بسنة لخاربة الحليفة . وكانت البواخر تسير بنا ليلاً ونهاراً ولم نكد نسير يومين او ثلاثة حتى وصلنا الى قوز ابي جمعة وهي آخر محطة كان فيها مكتب للتراف في تلك الايام فلما تركناها وراءنا شعرنا كأننا انقطعنا عن العالم . وكان مأمور قوز ابي جمعة المرحوم اليوزباشي محمد شريف . وان لاني ليهجز عن وصف ما رأيت منه من كرم الاخلاق وحسن الضيافة ولا ازال اذكر حادثة جرت امامي بينه وبين الاهالي اظهر فيها ما جبل عليه من اللين وطول الاناة . ولم تمض على ذلك بضع سنوات حتى قتله الاهالي غدرآ في حادثة الكاملين المشهورة . ومن الاماكن التي مررنا بها جزيرة ابا وهي المكان الذي اقام فيه المهدي ونشر دعوته منه وعلى مقربة منها مكان في النيل يعرف بخفاضة ابي زيد يزعم اهالي السودان ان ابا زيد الملالي خاض النيل منها في رحلته الى المنزب . والنيل هناك واسع جداً فاذا جاء زمن انخفاضه قل الماء فيه كثيراً فلا يزيد عمقه في اعمق مكان على قدمين

الوصول الى فشودة والتوفيقية

وكننا كما نعد الرقود ما نقف قرب غابة من الغابات نخطب منها ثم وصلنا بعد ايام الى مكان يسمى الزنك فكان آخر عهدة بالعرب هناك واول عهدنا بالسود والبعوض . وبعد سير تسعة ايام وصلنا الى فشودة فوجدناها تكاد تكون خراباً ليس فيها الا اطلال المنازل التي بناها الكورنل مرشان . وفقدنا هناك اول رجل من رجالنا كان يستقي من النيل فقط الدار منه فنزل لانثاشا في مكان لا يزيد عمق الماء فيه على ذراعين فلم يكده يصل الى الماء حتى اخذني كلع البصر كأن نباحاً جذبته من قدميه وجروته تحت الماء

ثم اقلنا من فشودة الى التوفيقية فلقينا فيها جماعة من الاصدقاء الاوفياء منهم الدكتور اسكندر القيم فاحسنوا وفادتنا وبتنا تلك الليلة في ضيافتهم ثم تركنا الظافر والحفير وانتقلنا

منهما الى مدغيشين اخر بين اسمها ابو طليح وخير ولحق بنا هناك اللفتنت فل واستلم قيادة البواخر

قبيلة الثلث

و كنت اود ان اكون شاعراً لا صف تلك البلاد واهاليها ومعظمهم من قبيلة الثلث وهم طائفة من السود طوال القامة اشدها سلاحهم الحراب والنرق والهدبايس ولرجلهم عنابة كبيرة شعور رؤوسهم بصفرونها اشكالاً واكثرهم عراة وقد يستر بعضهم بمزق من الجلد او السج . اما النساء فيعطن شعورهن او يطمنها ويستترون بماز الجلد . وقبيلة الثلث كبيرة جداً منتشرة على ضفة النيل الغربية من بحيرة نو الى الكاكا ويقم عدد قليل منها في نواحي فاشودة والتوفيقية على الضفة الشرقية . وعليهم ملك يكاد يكون مستقلاً في الاماكن البعيدة عن مراكز الحكومة

دخولنا في بحر النزال

اقلنا من التوفيقية في التاسع من شهر ديسمبر وبعد سير يومٍ و ليلة وصلنا الى بحيرة نو حيث يلتقي بحر النزال وبحر الزراف وبحر الجبل لذلك يسميها العرب مقرن البحور . وهي بطيخة من بطائح النيل تكثر فيها النباتات المائية كالبردي والنيونفر والنعيج . وفيها من الطيور المائية نوع من القلق غرب الشكل جداً له منقار كبير منحنف كالحذاء العربي لذلك يسميه العرب ابا مراكوب وقد اخذ الانكليز هذا الاسم عنهم وسموه (Shoe-bill) . وافر اس النهر والتامسج كثيرة جداً هناك . ويصب النزول الى البر في هذه البحيرة وفي بحر النزال كله لكثرة النباتات المائية ويكاد الرائي لا يعرف اين ينتهي البر وينتهي الماء فاذا رأى شجراً عرف ان الشجر في البر لا في الماء . والبر بعيد جداً عن مجرى الماء لان بحر النزال بحيرة او مستنقع كبير يجري الماء في وسطه فقط وسائرُه مغطى باليات وهو كثير هناك وهذا شأن اكثر الانهار التي تمتد النيل في اعاليه . ومضى اشتبكت هذه النباتات المائية بعضها ببعض وانفصلت عن جذورها وطففت على وجه الماء كأنها جزر عائمة سدت النهر كله فيسميها الملاحوون بالسد . ويعسر حينئذ سير المراكب والبواخر وربما اجتمع السد حولها وجسها كما يجس الجليد السفن في الاصقاع الشمالية . وقد جس السد جسي باشا ورجاله سنة ١٨٨٠ نحو شهرين في بحر النزال فعضهم الجوع ومات عدد كبير منهم واكل بعضهم لحم القروود التي كانت معهم والنباتات المائية التي هناك انواع كثيرة منها البردي والنيونفر والبوص . ومنها نبات يشبهك





(١)



(٢)



(٣)

(١) قارب مصنوع من خشب الخبيج (٢) أسد في بحر الغزال وسفينة في

(٣) جماعة من السود يسلطون فرس النهر ويقطعونه

نشرت هذه الصور بأذن صاحبها جورج افندي مرعي

بعضه يعض بسميده العرب ام حوف (Panicum pyramidale) ومنها غم شائك يدعى العنج (Herminiera elaphroxyton) متى جف خشبه صار اخف من الطين فيضع السود منه ارماتاً وقوارب يركونها في النهر فاذا خرج الواحد منهم من الماء اخرج رمشه او قاربه وحمله الى بيته . ومن الاشجار الغريبة شجر الدليب وهو نوع من الخش يشبه الدوم لكنه ذو ساق واحدة لا فروع لها وله ثمرة اصفر اللون يشبه الاناناس في طعمه لكنه شديد الصلابة . ولا وجود للدوم هناك فيجبل الدليب عمله وهو مثله لا يثبت الا على مقربة من الماء . والاماكن التي يثبت فيها الدوم والعشر يكون الماء فيها قريباً من سطح الارض والقرى على ضفاف مقرن البحر قليلة جداً ويوتها متفرقة بعيدة عن مجرى الماء وهي منازل قبيلة من السود تعرف بالثوبور . اما بحر الغزال فلا اذكر اني رأيت ما يدل على وجود الانس بقريه فكان البلاد هناك خالية خاوية . على اننا رأينا مرة جماعة من السود مجتمعين على جثة فرس نهر وهم يقطعون اللحم منها ويقددونه في الشمس

وكان شوقنا عظيماً ونحن سائرون لرواية الافيال . وفي مساء يوم رأينا اربعة منها قلاً رأينا وقت لتخرج علينا لكنها كانت بعيدة عنا ولم نجد مكاناً ننزل منه الى البر لنطلق الرصاص عليها عن قرب فتركناها وشأنها

الوصول الى مشرع الريك

وفي الرابع عشر من ديسمبر وصلنا الى مشرع الريك وهو آخر مكان تصلح الملاحة فيه فارست بنا البواخر قرب جزيرة هناك فقلنا فيها وجملناها قاعدة اسمالنا . وفي اليوم التالي اضرمنا النار في العشب ثم نصبنا خيامنا وانزلنا امعتنا وبناتنا واخطت الساكر والمهاجرون اماكن لنزول عافلاتهم واخذوا بيتون المنازل فيها ولم تقصر ايام فلانل حتى صار ذلك المكان قرية عامرة . ولا انسى الساعة التي انزلنا الحفر فيها من الصنادل بعد ان جبت فيها ستة عشر يوماً ثم اطلتناها تسرح وتمرح وتخرغ وتنهق غير عالة بما قدر لها وانها ستكون كلها طعاماً للثعالب والضباع في بضعة اشهر . وكان حماري اشدها حبوراً . ولهذا الجمارقة غريبة فانه بعد ان خدمني خدمة صادقة اكثر من ستة اشهر اتقذني من الافلاس بعد موته كما سيأتي ذكره في حينه

الدكتور امين الخلوف